سيميائيّة
(بكاء) السيّدة الزهراء (عليها السلام)

المدرس الدكتور
سليمة فاضل حبيب الكلابيّ
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسيّة

سيميائيّة
(بكاء) السيّدة الزهراء (عليها السلام)

Semiotics
(Crying) Lady Zahra (peace be upon her)

المدرس الدكتور
سليمة فاضل حبيب الكلابيّ
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسيّة
Lecture.Dr. Salima Fadel Habib Al-Kelabi
University of Kufa/ College of Basic Education
d.saleemaalkalabe@gmail.com

الملخص:
تتلخص أهمية هذا البحث في كون البكاء من الظواهر البشرية العالمية، بوصفه ظاهرة تجاوزت الإطار الانفعالي الطبيعي الظاهري إلى أطر أخرى أبعد من ذلك الإطار، منها أطر فلسفية وتاريخية.. ويتمثل البحث في سيميائية بكاء السيّدة الزهراء (عليها السلام)، في دراسة هذا الفعل التواصلي (غير اللغوي) الصادر عن السيدة الزهراء (عليها السلام)، ولا سيما ذلك البكاء الذي صدر عنها في حضرة أبيها (صلوات الله عليه وعلى آله) حين طلب منها الاقتراب منه ليخبرها بأمر وهو في مرضه الذي توفاه الله فيه، فبكت حين همس بأذنها ثمّ ضحكت حين همس في أذنها مرّة أخرى، وهنا نكون في قبالة فعلين تواصليين متناقضين غامضين في وقت واحد، يكمن غموضهما بقرينة اجتماعهما معًا في الوقت نفسه، فضلًا عن غموض ما أسرّه الرسول لابنته من خبر وتفاصيل تتعلق به؛ فالبحث يمثل محاولة لتحديد هذا الفعل السيميائي (غير اللغوي) ومحاولة قراءته على وفق المعطيات التي يتيحها لنا المنهج السيميائي، ولا سيما ما يعرف بـ (سيمياء التواصل) مع ما جاور (فعل البكاء) من أفعال لغوية جاءت مقترنة به، لتشكل بمجملها قراءة سيميائية أمكن من خلالها استنتاج مجموعة من الدلالات والقيم الإنسانية الخالدة في شخصية السيدة الزهراء(عليها السلام).

الكلمات المفتاحية: السيميائية . البكاء . السيدة الزهراء (عليها السلام) .

Abstract

The importance of this research is summarized in the fact that crying is one of the universal human phenomena, as a phenomenon that has transcended the apparent natural emotional framework to other frameworks beyond that framework, including philosophical and historical frameworks. The research is represented in the semiotics of the crying of Lady Zahra (peace be upon her), in studying this communicative act (non-linguistic) issued by Lady Zahra (peace be upon her), especially that crying that issued from her in the presence of her father (may God's prayers be upon him and his family) when he asked her to approach him to tell her something while he was in his illness in which God took him, so she cried when he whispered in her ear and then laughed when he whispered in her ear again, and here we are facing two contradictory and mysterious communicative acts at the same time, their ambiguity lies in the evidence of their coming together at the same time, in addition to the ambiguity of what the Messenger confided to his daughter of news and details related to it, so the research represents an attempt to define this semiotic act (non-linguistic) and an attempt to read it according to the data that the semiotic method provides us, especially what is known as (semiotics of communication) with what is adjacent (The act of crying) is one of the linguistic acts that came in conjunction with it, to form as a whole a semiotic reading through which it was possible to deduce a group of eternal human meanings and values in the personality of Lady Zahra
(peace be upon her).

Keywords: (Semiotics - crying - Lady Zahra (peace be upon her**)**

توطئة

يعدّ البُكاء ظاهرةً بشريّةً عالمية، لا يختصّ بها شعبٌ أو فئة عمريّة دون أخرى، وهي ظاهرة تجاوزت الإطار الانفعاليّ الطبيعيّ الظاهريّ إلى الإطار الفسيولوجيّ، والنفسيّ، والتاريخيّ، والأدبيّ، وللبكاء تاريخٌ، وفلسفةٌ خاصّةٌ، تتمظهر في كونها شكلٍ من أشكال التّعبير غير اللغويّة، بوصفه صورةً من صور اللغات البشريّة المعبّرة، وغير المنطوقة.

وبما أنّ للغة الملفوظة والمنطوقة، بكلّ مستوياتها وأساليبها ، مناهجَ كثيرة ومتطوّرة ومتجدّدة، تتيح بدورها الأدوات المختصّة الفاعلة التي تمكّننا من ممارسة القراءة، والنّقد، والتّحليل، والتّفسير، والتّأويل للظّاهرة اللغويّة المدروسة؛ فقد

ظهرَ مؤخّرًا مجالٌ واضحٌ لدراسة ما يرتبط بهذه الظّواهر اللغويّة (اللفظية) من ظواهر، وممارسات تواصليّة لا يشترط فيها وجود الفعل اللغويّ (الملفوظ) وحسب؛ بل أصبح بالإمكان دراسة ظواهر تواصليّة (غير لفظيّة) كحركة الأجسام، والثياب والحُليّ، والتنظيمات الاجتماعيّة، والأعراف، والعادات والقضاء، والحواسّ بما يتعلّق بها من مظاهر كالضّحك والبُكاء.. والحُزن، والفرح.. وإلخ، من هنا بإمكاننا دراسة (البكاء)، بوصفه ممارسةً اجتماعيّة (غير لغويّة)، أو (غير لفظيّة)، تؤدّي ما يؤديه الفعل التواصليّ اللغويّ، ومن هنا أصبح فعلُ (البكاء) ذا حيّزٍ لا يُستهان به في ميدان الدراسات الأدبيّة التي اتّسعت لتنفتح على الدّراسات اللسانيّة الحديثة؛ لتتيح لنا الأخيرة مناهجَ، وأدواتٍ تمكّننا من قراءة، وتحليل (البكاء) بوصفه لغةً غير منطوقة تنبض بدلالات ومعانٍ لا تقلّ أهميّةً، وشأنًا عن قيمة اللغة المنطوقة، وبوصفه فعلًا تواصليًّا غير لغويّ لا يقلّ أهميّةً في دلالاته وقيمته المضمونيّة عن الفعل التواصليّ اللغويّ الملفوظ.

وللبكاء تاريخٌ عظيم، شغل تفكير الفلاسفة، والشعراء، والأدباء، والعلماء، وأخذ حيّزًا من اهتمامهم، وورد في القرآن الكريم آيات كثيرة عن البكاء، مثل قوله تعالى: ((وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)) النجم: ٤٣، وقوله تعالى: ((إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)) مريم: ٥٨، وقوله تعالى: ((وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)) يوسف:٨٤، وقوله تعالى: ((وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)) الإسراء: ١٠٧، وقوله تعالى: ((وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ)) المائدة ٨٣، وقوله تعالى: ((تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)) التوبة: ٩٢، وقوله تعالى: ((وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)) النجم: ٦٠، وقوله تعالى: ((فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)) التوبة:٨٢.

ويُنقل عن الكافي أنّ الشيخ الكلينيّ (رحمه الله تعالى)، قد أفرد فيه بابا عن (البكاء)، أخرج فيه أحد عشر حديثا فيه.

أمّا السيّدة الزهراء (عليها السلام) فلقد ارتبط فعل البكاء باسمها الشرّيف، حتّى عدّت من البكّائين الخمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف، وعليّ بن الحسين (عليهم السلام)، ومن هنا كانت انطلاقة البحث؛ فتشكّل حافزًا لدراسة فعل (البكاء) عند السيّدة الزهراء (عليها السلام)، ووقع الاختيار على (المنهج السيميائيّ)؛ بوصفه من المناهج اللسانيّة الحديثة التي اعتنتْ بدراسة الأفعال التواصليّة اللغويّة، وغير اللغويّة على السّواء.

وتمثّل السيميائيّة واحدًا من أبرز الحقول التي تركّزُ في جانبٍ منها، على فكرة الاهتمام بالخطابات في أبعادها التداوليّة، من منطلق إنّها

وحدات كلاميّة مخصّصة لأغراضٍ تداوليّة، واتّصاليّة تفرضها جملة من العمليّات الناشئة عن التفاعل بين مستويات مختلفة، ترتبط فيها الوظائف اللغويّة بواقع الاستعمال، وفعاليّة الخطابات؛ إذْ يأخذ فيها المكوّن التداوليّ بعين الاعتبار الأنظمة التي يتضمّنها استعمال المنتج، أو المؤلّف لموضوعاتٍ لغويّة سليمة داخل أوضاع، ومقامات محدّدة، علما أنّ السيميائيّة هي الأخرى متعدّدة الأشكال، والاتجاهات؛ منها سيمياء اللغة، وسيمياء الدلالة، وسيمياء الثقافة، و(سيمياء التواصل)؛ التي وقع عليها الاختيار منهجًا لقراءة فعل (البكاء) لدى السيّدة الزهراء، ولا سيما في موقف زيارتها لأبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مرضه . كما سيتّضح في تفاصيل البحث لاحقا . ذلك الموقف الذي تهامس فيه كلٌّ من الأب المتمثّل بشخصيّة الرّسول (صلى الله عليه وآله) وابنته الزهراء (عليها السلام)، متبادلينِ شفرةً لم يفهمْها سواهما، حين أسرّها الرسول بشيء فبكتْ (عليها السلام) في ذلك الموقف ثمّ ضحكت! ولم يكن لمن شهد ذلك الموقف، تفسير لبكاء السيّدة (عليها السلام)، ومن هنا استحقّ أن يكون مادّةً لبحثنا السيميائيّ هذا لنعرف الدلالة السيميائيّة في هذا الفعل التواصليّ الغامض، وما يحمله من دلالات، وقيمٍ خالدة. والله ولي التوفيق...

المطلب الأول (الجانب النظري)
نشأة المنهج السيميائي وتطوره
(سوسير . بيرس . جاكبسون)

يعدّ عالم اللغة الاجتماعيّ، واللغويّ(دي سوسير) أوّلَ من بشّر بميلاد هذا العلم في محاضراته الصّادرة١٩١٦ حين تناول السيميائيّة على أنّها: " دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعيّة"[١]، وإليه يرجع مفهوم النّظام السيميائيّ بوصفه نظامًا للعلامات بما رافقه من مفاهيم كالدّالّ، والمدلول، وأنّ اللغة نظامٌ من العلامات التي تعبّر عن الأفكار، وفيما بعد استقلّتِ السيميائيّة بموضوعها في العصر الحديث، وأضحى لها اتجاهات عدّة؛ فهناك سيمياء التواصل لدى جاكبسون، وبيرتو، ومونان وبويسنس، وثمة سيمياء الدلالة لدى بارت، ولاكان، وهناك سيمياء الثقافة التي قال بها الروسيّ لوتمان، والإيطالي امبرتو إيكو، وتتعدد السيميائيات بتعدّد الموضوعات البحثيّة، والأنساق الدلاليّة المتنوّعة منها سيمياء الصّورة، وسيمياء السّرد، وسيمياء الأهواء، وسيمياء الانتماء [٢]، وربما ما زال الميدان مفتوحا لسيميائيات أخرى جديدة.

وبوساطة أدوات المنهج السيميائيّ الإجرائيّة أصبح بالإمكان تقديم قراءة ناجعة تستهدف الأفعال اللغويّة، وغير اللغويّة على السّواء في الخطابات الإنسانيّة بكلّ أشكالها سواء كان الخطاب أدبيًّا أو علميًّا، سياسيًّا كان أو

اجتماعيًّا... ومن ثمّ تحليل الخطاب، وتحديد الرّموز، والدوالّ الإشاريّة التي تعين على القراءة بشكل واعٍ، ومتيقّظ بشكلٍ ربّما لا يمكن لمنهجٍ آخر أن ينهضَ به، ومن هنا عُدّ المنهج السيميائيّ من أهم ما أفرزتهُ الدّراسات اللسانيّة الحديثة بوصفه منهجًا جديدًا في مقاربة اللغة، والكلام، والخطاب تجاوز مفهوم ثنائية الدالّ، والمدلول إلى مفاهيم تواصليّة أخرى تصلح لمختلف مجالات القراءة والتّأويل؛ فالسيميائيّة كما يصفها عالم الرياضيات المنطقيّ الموسوعيّ شارلز موريس:(أنّها العلم الذي ينسّق العلوم الأخرى، ويدرس الأشياء، أو خصائص الأشياء في توظيفها للعلامات، ومن ثمّ فالسيميائيات هي آلة كلّ العلوم)،.. وهو صاحب المقولة الشهيرة "لم يكن في وسعي أن أدرس أي شيء سواء تعلّق الأمر بالرياضيّات أو الأخلاق، أو الميتافيزيقا، أو الجاذبيّة أو الديناميكيّة الحراريّة، أو علم البصريّات، أو الكيمياء، أو علم التشريح المقارن، أو علم الفلك، أو علم النّفس أو علم الأصوات أو الاقتصاد، أو تاريخ العلوم، وكذا الويست (لعبة الورق)، والرّجال، والنّساء والميثولوجيا، إلّا من زاوية نظر سميائية»[٣]؛ لأنّ كلّ علمٍ يستعمل العلامة، وتظهر تاليًا نتائجه طبقًا للعلامات، إذن هي العالم الواصف أو (علم العلوم).

إنّ ربط علاقة اللغة بوصفها نظامًا من العلامات السيميائيّة بظروف الاستعمال يستوجب فهم الكيفيّة التي تعمل بها هذه العلامات في أثناء العمليّة التداوليّة من حيثُ هي وحدات معنويّة منسوقة في ضمن أحوالٍ تخاطبيّة يقتضيها السياق والمقام.

ولا شكّ أنّ مثل هذا التصوّر يمكّن الدّارسَ من رصد الأدوات، والعوامل المنتجة للظّروف المحيطة بالعمليات المناسبة لاستراتيجيّات التّخطيط والسّياق للتّعامل مع النّصوص إنشاءً، وتداولًا، من خلال منظومة الشّيفرات الأوّليّة، والثانوية المشتركة بين المؤلّف، والمتلقّي؛ وذلك في ضوء مبادئ التّحليل التداوليّ السيميائيّ، وإجراءاته الكشفية لاسيما وأنّ للعلامات معانيَ، ودلالات، وأنّ العلامة– كما ينقل موريس بيكام عن الفرنسيين–" تريد أن تقول شيئًا، ورغم ذلك ليس باستطاعتها أن تقول شيئًا إلّا بوجود شخصٍ يستقبلها، ويستجيب لما تريد قولَهُ، وما لم تتوفرِ الاستجابة من جانب شخصٍ ما لا توجد دلالة أو معنى".

من هنا كان المعنى من أبرز المشكلات التي تداول عليها فلاسفةُ اللغة وعلماء اللسان والبلاغيّون منذ أقدم العصور، ولا أظن أنّه قد حُسِمَ بشكل نهائيّ حتّى الآن؛ فقد خضع لعددٍ يكاد لا يحصى من النظريّات، واتخذ التفسير فيها اتجاهاتٍ ومذاهبَ شتّى، نظريّةً وإجرائيّةً؛ كالاتجاه المثاليّ، والاتجاه الصوريّ، والاتجاه الاسميّ، والاتجاه التداوليّ الذي جعل المعنى قائمًا في طريقة استعمال لفظ ما في سياق أو

مقام وإذا ما كان هناك تجريدٌ؛ فإنّما يكون لطريقة الاستعمال، وليس لخصائص المسمّيات[٤]، فليس للفظ معنًى؛ بل إنّ له تمظهراتٍ في مقامات الكلام، وتفاوتًا ليس إلّا، وهذا ما مثّله اتّجاه عالم المنطق، والرياضيات، وفيلسوف البرجماتية الأمريكية شارل سندرس بيرس C.S.Peirce الذي حدد الإطار الفلسفيّ للمبادئ، والأسس الأولى لنظريتَي التداوليّة[٥] والسيميوطيقا في العصر الحديث، للنّهوض بالتفسير البرجماتيّ على أنقاض التفسيرات الميتافيزيقيّة.

يتوقّف تفسير المعنى عند بيرس على نتائج استعمال العلامة؛ فهو مرهونٌ بالعقل الذي يدركه وفاقًا لبروتوكول رياضيّ ثلاثيّ يربط بين العناصر المكوّنة للعلامة التي يدعوها بـ(الماثول، الموضوع، والمؤول)، ولا يمكن أن يكون هذا البروتوكول . في نظره . إلّا ثلاثيًّا[٦]، إذا ما أريد تحديد العلامة تحديدًا منطقيًّا في تجلياتها المتعدّدة اللسانيّة، وغير اللسانيّة، وتداولها في ضمن نسقٍ سيميائيّ يحقّق وجودها في الزّمان، والمكان؛ ذلك أنّ المنطق . في تصوّر بورس . ليس سوى تسميةٍ أخرى للسيميائيّات التي يعدّها نظرية شكليّة لدراسة العلامات بحيث لا يقوم فعلُ العلامة في واقع الاستعمال إلا بناءً على "مؤول" يسوّغ صحّة إحالة "الماثول" على الموضوع، ويمنحها الصفة العمليّة؛ إذ يكوّن "المؤول" الركن الركين في تداول العلامة، وتأويلها.

ناقش بيرس بمقتضى هذا البروتوكول المبادئَ العقليّة الكامنة وراء الظواهر السلوكيّة المنتجة للمعاني والدّلالات على قاعدة أساسيّة مفادُها: إن معنى العلامة يتوقّف على نتائجها التداوليّة، وإنّ الحكم بأنّ علامةً ما، ذات معنى لا بدّ أن يأخذ في الاعتبار النتائج التداوليّة العمليّة التي تُنتج بالضّرورة من صدق هذه العلامة التي تمثّل خلاصة نتائجها، ومعناها الكلّيّ.

إنّ المعاني وفاقًا لهذا التصوّر ما هي إلّا خططٌ تجريديّة للسّلوك العمليّ، والتداوليّ المتمثّل في أفعال الكلام، أو في غيرها من السلوكيّات السيميائيّة غير اللغويّة، والمعنى إذا لم يؤدِّ فعلًا كلاميًّا سيميائيًّا، على سبيل المثال عدّ معنًى زائفًا، ويشترط بيرس في ذلك أن يكون الفكر الذي يستعمل هذه العلامات فكرًا علميًّا. من هذا المنظور التداوليّ صنّف بيرس المفسّرات أصنافًا عدّة، في إطار السيميوطيقا، بوصفها نظريّةً تبحث في الطبيعة التداوليّة للعلامة، يهمنا منها المفسّر المنطقيّ، الذي يعرفه بأنه: "المعنى الذي يصل العلامة بموضوعتها" [٧].

ويمكن القول إنّ تفسير لفظٍ ما يكمنُ في ذكر خصائصه الحسيّة فحسب؛ ذلك لأنّ تدبّر الآثار، التي يجوز أن يكون لها نتائج فعليّة على الموضوع الذي نفكر فيه، هي فكرتنا على كلّ الموضوع؛ وإذا كانتِ العلامة شيئًا متباينًا عن

موضوعتها؛ فلا بد أن يكون هناك في الفكر أو في التّعبير . أيّ في فعل الكلام . تفسيرٌ أو حجّة، أو سياقٌ، يوضح كيف يتمّ ذلك[٨].

وفي الوقت الذي يشدّد فيه بيرس على صناعة المعنى؛ فإنّه يرفض المساواة بين المعنى، والدلالة؛ إذ إنّ العلامة في نظره لا تتضمّن معنًى؛ وإنّما يظهر هذا الأخير من تفسيرها، وهنا يشير إلى التّأويل (المعنى الذي تتّخذه العلامة في العمليّة التداوليّة)، وليس المفسّر بشكل مباشر، رغم أن للمفسّر حضورًا ضمنيًّا في سيرورة المعنى[٩]، وكثيرًا ما يذكر بيرس العلامة، وهو يقصد الممثّل ممّا جعل بعض المشتغلين على الخطاب السيميائيّ يقعون في نوعٍ من الارتباك، في تفسير العلامة signe، انطلاقًا من تجليّاتها في ضوء تمظهرات الممثّل représentamen كجزء في شكل منطوقٍ، أو مكتوبٍ، لا بعدّها كلًّا ذا معنى.

وعلى الرّغم من تأكيد بيرس أنّ المعنى لا يتحدّد إلّا بتفاعل العناصر الثلاثة (الموضوع والممثل والمؤول) التي تكوّن . مجتمعةً . العلامة[١٠]؛ فإنّ موريس C.Morris يقترح ثلاثة مستويات للنّظر إلى العلامة: المستوى الدلاليّ، وينظر فيه إلى العلامة في علاقتها بالمدلول.

والمستوى التركيبيّ: وينظر فيه إلى مجموع القواعد، والمزواجات التي تحكم علاقة علامة بعلامة أخرى، من جهةٍ، ورصد البيانات الداخليّة لدالّ العلامة من جهة ثانية.

أما المستوى التداولي: فخصّه للنّظر إلى العلامة في ارتباطها بأصولها، وأثر هذه الأصول، أو المرجعيّات على المتلقّي، والعلاقة التي يعقدها هذا الأخير بين العلامة، ومنابعها الأصلية[١١].

ومن الملاحظ أنّ الممثّل عند بيرس . كما فهمه موريس . يشبه الدالّ عند سوسير، والتأويل شبيه بالمدلول، لكن للتّأويل صفة لا توجد في المدلول، وأنّها لا تكمن إلّا في فكر المؤول؛ إذ تظهر في العمليّة التداوليّة في أثناء دورة الخطاب، حين تنتقل العلامة من طرف إلى طرف آخر، ويقوم هذا الأخير بتوليد معادلٍ لها، وعندئذ يصبح معنى العلامة(أ) هو العلامة(ب) الذي يمكن أن تكون ترجمة لها، وهذا ما يسميه إمبرتو إيكو" بسيرورة المعنى غير المحدودة "،والسيرورة هي الطريقة التي تؤدي فيها تلك الترجمة إلى متوالية من التأويلات، التي وسمها بيرس " بالسيميوزيس" حين أدرك أنّ معنى الممثّل لا يمكن أن يكون إلا ممثّلًا آخر؛ أي ممثّل يمكن تأويله في سلسلة غير منتهية من التأويلات[١٢]، ويستخلص من ذلك: بأنّ جهود بيرس وإسهاماته في هذا المجال لا تندرج في سياق البحث عن مفهوم للعلامة السيميائيّة فحسب؛ وإنّما هي موجّهة نحو إيجاد تسويغٍ فلسفيّ لمفهوم تداول العلامات في واقع الاستعمال، وإن كان لا يميل إلى إعطاء الفلسفة مكانة متميّزة تحتكر بمقتضاها كلّ ما يمتّ بصلةٍ إلى العقلانيّة.

أما جاكبسون فيسند عمليّة التواصل إلى ستّة عناصر أساس، هي: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، والقناة، والمرجع، واللغة، وتهدف سميولوجيا التّواصل إلى الإبلاغ عبر علاماتها، وأماراتها وإشاراتها، والتّأثير في الغير عن وعيٍ، أو غير وعي.

وبتعبير آخر: تستعمل السيميولوجيا مجموعةً من الوسائل اللغويّة، وغير اللغويّة لتنبيه الآخر، والتّأثير فيه عن طريق إرسال رسالة، وتبليغها إيّاه، ومن هنا فالعلامة تتكوّن من ثلاثة عناصر: الدالّ، والمدلول، والوظيفة القصدية[١٣]، وبحسب هذه النظرية التي يمثّلها . كلّ من بريتو ومونان وبويسنس . يرون أنّ التّواصل نوعان: تواصل إبلاغيّ لسانيّ لفظيّ (اللغة) ، وتواصل إبلاغي غير لسانيّ (علامات المرور مثلًا) يعدّون الدليل مجرّد أداة تواصليّة تؤدّي وظيفة التبليغ، وتحمل قصدًا تواصليًّا، وهذا القصد التواصليّ حاضر في الأنساق اللغويّة، وغير اللغويّة، كما أنّ الوظيفة الأولية للغة هي التأثير في المخاطب من خلال ثنائيّة الأوامر والنواهي، لكن هذا التأثير قد يكون مقصودا، وقد لا يكون مقصودًا، ويستخدم في ذلك مجموعة من الأمارات، والمعينات (Indications) التي يمكن تقسيمها على ثلاث: (الأمارات العفوية): هي وقائع ذات قصد مغاير للإشارة، تحمل إبلاغًا عفويًّا وطبيعيًّا، مثال: لون السماء الذي يشير بالنّسبة لصياد السّمك إلى حالة البحر يوم غد، و(الأمارات العفوية المغلوطة): هي التي تريد أن تخفي الدلالات التواصليّة للغة، كأن يستعمل متكلّم ما لكنة لغويّة ينتحل من خلالها شخصيّة أجنبيّة؛ ليوهمنا أنّه غريب عن البلد، و(الأمارات القصديّة): هي التي تهدف إلى تبليغ إرساليّة، مثل: علامات المرور، وتسمّى هذه الأمارات القصديّة أيضًا بالعلامات[١٤]؛ فإذا كانت اللسانيّات تدرس ما هو لغوي ولفظيّ؛ فإن سيمولوجيا التواصل كما لدى جاكبسون تدرس ما هو لغويّ، وما هو غير لغويّ؛ فكلّ خطاب لغويّ، وغير لغويّ يتجاوز الدّلالة إلى الإبلاغ والقصديّة الوظيفيّة يمكننا إدراجُه في ضمن سيميولوجيا التواصل[١٥].

إنّ التّفسير الإجرائيّ للمعنى، تفسيرًا علميّا كان من الغايات النهائية التي جعلت بيرس يناشد فلاسفة اللغة والمشتغلين على المعنى بضرورة التوسّل بالمنهج العلميّ البرجماتي لبلوغها إذا ما أرادوا فعلًا تحديد معاني الألفاظ تحديدًا دقيقًا، وذلك بألّا يبدأ المفسّر بالكلمة؛ ثمّ يعقبها بتعريف؛ بل عليه أن يبدأ بالصفة أو مجموعة الصفات التي يلاحظها في ضمن الأحوال التخاطبيّة في العملية التداوليّة، ويضع لها اسما يميّزها؛ ثمّ يطلق هذا الاسم في نهاية المطاف على ما قد لاحظه، وهكذا يصبح تعريف الاسم هو الصّفات التي كانت وقعتْ في حدود التّجربة مجسّدة بالمشاهدة أو المحادثة أو الخطاب، وإذا

ما تمّ بعد ذلك استخراج من هذا التعريف نتائج مترتّبة عنه كانت هذه النتائج مطابقة للواقع[١٦].

أمّا جاكبسون فقد كان ألسنيًّا يشدّد على الوظائف الاجتماعيّة للغة؛ لذلك أدرك سريعًا أهميّة أمرين: المكان الذي تشغله المرسلات المعيّنة داخل سياق المرسلات التي تحيط بها، وعلاقة المرسلة المعيّنة بعالم الخطاب[١٧]؛ فكلّ الشيفرات . بحسب جاكبسون . شيفرات مجتمعيّة، بمعنى أنّ اصطلاحاتها لا توجد بمعزل عن الحياة الاجتماعية، والمعنى السياقيّ يتضمّن المعنى المقاميّ في مقام التواصل؛ فتضمن نموذج جاكبسون السياق، والشفرة بشكل نهائيّ متخطّيًا بذلك الإطار السوسيريّ الذي انطلق منه، والإطار الذي استبعد كلّ سياق إرجاعيّ خارج منظومة الإشارات في حدّ ذاتها، كما أنّ هذا النوع من نماذج التواصل تقرّ بأهميّة (السياقات الاجتماعيّة) في تحديد المعنى مشيرة إلى بناء الهويّات الاجتماعيّة، ومثال ذلك ما ترجعه الوظائف عند جاكبسون إلى أدوار (المتكلم)، و(المخاطب)، وصيغ العلاقة بينهما[١٨].

المطلب الثاني

(أهمية المنهج السيميائي في دراسة فعل البكاء بوصفه فعلا تواصليا سيميائيا)

نروم هنا البحث في بعض الممارسات التواصليّة غير اللفظيّة في خطابات السيّدة الزّهراء (عليها السلام)، فاخترنا (البكاء) بوصفه ممارسةً من الممارسات الإنسانيّة التي تؤدّي وظيفة تواصليّة اجتماعيّة دالّة في ظروف وسياقات معيّنة، وهي بذلك تؤدّي فعلًا تواصليًّا إبلاغيًّا تمامًا كالذي تؤدّيه الدوالّ اللغويّة الصّريحة؛ فهناك أنساق لفظيّة يمكن دراستها في خطاب السيّدة الزهراء متمثّلة بما يتضمّنه خطابها من دوالّ، ومدلولات لغويّة، يتضمّنها خطاب السيّدة الزهراء (عليها السلام)، ونجد مصداقها في ما دوّنته المنظومة التراثية من خطب السيّدة الزهراء، وأقوالها ورواياتها (عليها السلام)، إلّا أن تلك النّصوص، والخطابات التي وصلتنا لم تخلُ في طيّاتها من أنساقٍ أخرى غير لفظيّة جاءتْ موازيةً لتلك الأنساق (اللفظيّة) المباشرة، وهما بالنتيجة تعدّان وسيلتيِن أساسيّتين من وسائل التّواصل، وعلى اختلافهما إلّا أنّهما تلتقيان في مواضع اشتراك متّفق عليها؛ إذ يؤدّي كلاهما وظيفتينِ أساسيتين، هما: (الوظيفة المعرفيّة) المتمثّلة في نقل الرموز الذهنيّة، وتبليغها في الزّمان والمكان، بوسائل لغويّة، وغير لغويّة.

و(الوظيفة التأثيريّة الوجدانيّة) التي تقوم على تمتين العلاقات الإنسانيّة، وتفعيلها على المستوى اللفظيّ، وغير اللفظيّ [١٩]، ومن هذا المنطلق جاء تعريف التّواصل بأنّه " العمليّة التي بها يتفاعل المراسلون، والمستقبلون للرّسائل في سياقات اجتماعيّة معيّنة" [٢٠]؛ فقد يتطلّب السياق، والموقف نسقًا من أنساق وسائل التواصل المتنوّعة، كما في خطابات السيّدة الزّهراء (عليها

السلام)، التي صدر عنها هذا الفعل السلوكيّ ضمن مجموعةٍ من الممارسات الاجتماعيّة المتعلّقة بالحواسّ، أو السلوكيّات، كالضّحك، أو البكاء، أو الفرح، أو الحزن، أو اللباس، أو الحليّ، والأدوات، وغيرها من السلوكيّات الأخرى كحركات الجسم، وإيماءاته، فضلًا عمّا تتضمّنه التنظيمات الاجتماعيّة المتّصلة بالروابط الاجتماعيّة، كالأعراف، والتقاليد والمعاملات، كأسلوبها في ممارسة الدّين، واستقبال الضيف، وإلخ.. من الأنساق التي لا يشكّل الخطاب اللفظي محورًا رئيسًا فيها، إلّا أنّها تتضمّن في جوهرها قيمةً تواصليّةً، وإبلاغيّةً تحيل بالنّتيجة إلى مجموعة من السيميائيّات الإشاريّة التي سنحاول قراءتها، وتفكيكها، وتأويلها من خلال قراءة (البكاء) بوصفه فعلًا تواصليًّا تطلّبه نوعٌ مخصوصٌ من المقام في سياق زيارتها لأبيها الرّسول (صلى الله عليه وآله) في مرضه الذي قضى به صلوات الله عليه وآله.

ونظرًا إلى ما فهمناه من السيمولوجيا، واتّجاهاتها المعاصرة التي تنقسم على اتجاهات ثلاث مختلفة وأحيانا متقاطعة مع بعضها في الوقت نفسه، وهذه الاتجاهات الثلاث التي يعبّر عن أحدها بـ (سيمولوجيا اللغة) أو ما يعرف بـ (سيمولوجيا الدّلالة) الذي يعتني بثنائيّة (الدال والمدلول)، آخر يعبر عنه بـ (سيمولوجيا الثقافة) التي تكون ثلاثيّة العناصر:(دال، ومدلول، ومرجعية ثقافيّة) تبحث عن القصديّة، والوظيفة؛ لكن داخل الظاهرة الثقافية أو مجموع من الظواهر الثقافيّة، إذ تكتسب العلاقة دلالتها من خلال وقوعها في إطار الثقافة، على أنّ الرسالة لا يشترط فيها هنا أن تكون لغويّة.

أمّا النوع الثالث من أنواع السيمولوجيا ـ الذي اخترناه ليكون منهجًا لبحثنا هذا بناءً على مقدّمات البحث التي ذكرناها آنفا ـ فهو ما يعرف بـ (سيمولوجيا التواصل)، والذي تكون عناصره ثلاثية (دال، مدلول، وظيفة قصديّة)؛ فكلّ رسالة . بحسب جاكبسون . قناة هدفها الإبلاغ والتأثير سواء أكان عن وعيٍ، أو عن غير وعي، وهذا النّوع من سيمولوجيا التواصل ينظر في ما هو (لغويّ) لفظيّ وما هو (غير لغويّ) غير لفظيّ، بمعنى أنّ كل خطاب تجاوز الدلالة إلى الإبلاغ والوظيفة القصديّة.

لقد حدد جاكبسون ستّة من العناصر التي تؤدي (الوظيفة التواصلية) و(الوظيفة الإبلاغية) وهي : (المرسل، المرسل إليه، الرسالة، قناة الاتّصال، السّياق، الشّفرة)، وهو ما سنسعى بواسطته لقراءة خطاب السيّدة على مستوى ما هو (لفظيّ)، وما هو (غير لفظيّ)، ما هو مقصود (عن وعي)، أو ما هو غير مقصود (عن غير وعي)، وهو ما نقصد به ذلك الخطاب الموجّه إلى الجماعة، سواء أكان خطابًا عفويًّا، أم كان خطابًا مقصودًا وواعيا، إلا أنه بالنتيجة يحقق وظيفة (الإبلاغ والتواصل)؛ ليلتقي الشّكلان في هدفٍ واحدٍ: هو التّأثير؛ فكلّ

خطاب لغويًّا كان أو غير لغويّ، لا بدّ أن يحمل في طيّاته نسقًا معيّنًا يشير بدورِه سيميائيّا إلى الذات المتكلّمة المؤثّرة التي تتجاوز في خطاباتها الدلالة إلى الإبلاغ والقصديّة، فالتّأثير؛ وهو ما نقصده من دراستنا هذه عن طريق سيمولوجيا التواصل بعناصرها الستّ التي أقرها جاكبسون[٢١].

في كلّ مجتمعٍ إنسانيّ توجد مجموعة من وسائل التواصل اللغويّة، وغير اللغويّة التي يعبّر بها كلّ فردٍ عن حاجاته، ورغباته، ومشاعره، سواء أكانتْ مشاعرَ رضًى أم غضب، فرح أم حزن، اكتفاء أم نقص، عدالة أم ظلم.. وإلخ من المشاعر الإنسانيّة الطبيعيّة في هذه الحياة، وفي كلّ وسيلة من وسائل التواصل تلك يتمّ إرسال رسالة فيها محتوى؛ فتكون الوسيلة بحسب نوع الرسالة وسياقها، وظروفها المحيطة بها، وبما أن الرسالة مرتبطة بمرسل، ومرسل إليه بحسب مفهوم التّواصل؛ فلا بدّ أن يكون ذلك المرسل محاطًا بنوعٍ، أو أنواع من الظروف والمرجعيّات التي تؤثر في مضمون الرسائل، وتمثّل انعكاسًا لتلك الظروف، وصورة لها.

وإذا كانتِ اللغة المنطوقة هي الوسيلة الاتّصالية المهيمنة على حياة أفراد المجتمع، إلّا أنّها ليستِ الوسيلة الوحيدة من وجهة نظر علم العلامات لتحقيق التواصل؛ لأنّ الإنسان يمتلك وسائل أخرى غير منطوقة تقوم بوظيفة التواصل مثل اللغة [٢٢]، واللغة من حيثُ إنّها مجموعة من العلامات أو الرموز، فهي ناتجة عن الأصوات التي يحدثُها جهاز النطق الإنسانيّ، والتي تدركها الأذن، هذه الأصوات التي تؤلّف بطرائق اصطلاحيّة في كلمات ذات دلالات اصطلاحيّة؛ فاللغة بهذا الاعتبار تشترك مع طائفة أخرى من النّظم [٢٣]"يصدق عليها ما يصدق على اللغة من أنّها تتكوّن من علامات اصطلاحيّة يُستعان بها على توصيل دلالات اصطلاحية" [٢٤]، ووسائل الاتّصال غير اللفظيّة كما . يرى عالم الانثربولوجيا الأمريكي Bird Whstell . تنتج مترادفة مع اللغة، بوصفها نظاما لا تحدث مفردة، وإنّما تصاحبها نظم أخرى منها الحركات الجسدية، التي تدخل ضمن اهتمام علماء النفس والتحليل النفسي والاجتماعي[٢٥]. وقد تتسم هذه العلامات بصعوبة تحديدها بوصفها (غير لفظية)؛ نظرا إلى تعدد مظاهرها وأشكالها وقنواتها، حتّى أنّ بعض الباحثين قسّم الاتّصال غير اللفظي على قسمينِ: هما لغة الصّمت، والثاني: لغة الجسد، التي قسمت بدورها إلى تعابير جسديّة، وتعابير فسيولوجية، فضلًا عن بعض التقسيمات التي جاءتْ بحسب الوسيط أو القناة التي تنقلها[٢٦] ، كما تختلف اللغة اللفظيّة من مجتمع إلى آخر، أو من ثقافة إلى أخرى؛ فإنّ اللغة غير اللفظيّة تختلف هي الأخرى في الاتّفاق على معناها في هذا المجتمع أو ذاك، كما أنّ التّواصل اللفظيّ . ربّما في بعض الحالات . ممّا يسهل تزييفه، والكذب فيه، بينما

التواصل غير اللفظيّ يصعب الكذب فيه؛ لأنّ ارتباطاته عميقة داخل الشّخص، لا يسهل تغييرها، مثل الألفاظ..، ولئن اقتضتِ المفردات كثيرًا من المعجمات؛ فإنّ إيماءات التواصل غير اللفظيّ اضطلعتْ نفسها بشرح معانيها، كالإطراق بالنّظر إلى الأرض بوصفه ردّ فعل لرسالةٍ ما، ما يعني التفكير فيها أو الاحتجاج عليها، والوقوف والانصراف بعد سماع رسالة ما بوصفه ردّ فعل لرفضها، والثورة عليها، وإجالة النظر في أرجاء مكان وإدارة الوجه يمينًا، ويسارًا يعنيان التهرّب من الردّ، والبحث عن مخرج، وكذلك تعبيرات الوجه التي تعكس الحالة الانفعاليّة، والوجدانيّة، وتمثّل إجابات بليغة.

وانطلاقا من النظرية العلاماتية التي أشار سوسير فيها إلى ولادة علم جديد يدرس العلامات، وقال بهذا الصّدد: " يمكننا أن نتصوّر علمًا يدرس حياة الدلائل داخل الحياة الاجتماعيّة، علمًا قد يشكّل فرعًا من علم النفس الاجتماعيّ، وبالتالي فرعًا من علم النّفس العام، وسنسمّي هذا العلم (بالسيميولوجيا) من Semions الإغريقيّة وتعني الدليل Signe، ومن شأن هذا العلم أن يطلعنا على كُنه الدّلائل، وعلى القوانين التي تحكمها " [٢٧]، علمًا أنّ منطلقه في التّعريف جاء من دور اللغة التواصليّة التي يعرفها بأنّها " رموز اصطلح عليها لتثير في النفس معاني، وعواطف خاصّة، والألوان، والأصوات والعطور تنبعث من مجال وجدانيّ واحد، ونقل صفاتها بعضها إلى بعض يساعد على نقل الأثر النفسيّ كما هو أو قريب ممّا هو، وبذلك تكتمل أداة التعبير بنفوذها إلى نقل الأحاسيس الدقيقة"[٢٨]، والعلامة متعلّقة في معناها أيضًا بعلاقتها مع شيء آخر وهي "التعبير عن نموذج تتشكّل منه علاقة ثلاثيّة يطلق عليها: العلامة، والموضوع، والتّعبير؛ فالعلامة هي بنظره شيءٌ قائم لشيء آخر، ومدرك أو معبّر عنه من شخص ما" [٢٩]، ونحن إذ ندرس خطاب السيّدة(عليها السلام)، لا ننظر إليه بوصفه تنظيمًا نصيًّا منظورًا إليه في نفسه، ولا إلى مقام التّواصل فيه وحسب؛ بل ننظر إليه بوصفه نمطًا ملفوظًا، وموضعًا اجتماعيًّا محدّدين، نستدلّ من خلالهما على مجموعة من العلامات السيميائيّة التي تتيح لنا شكلًا من أشكال تحليل الخطاب، وفهمه، إنّنا سنعتمد على قراءة (بكاء السيّدة) (عليها السلام) بوصفه دالًّا غير لفظيّ، يمكن أن نصفَه بالعلامة بوصفه سلوكًا، أو ممارسةً اجتماعيّة دالّةً، تحمل في مضمونها رسالة تواصليّة، وإبلاغيّة، فضلًا عن كونها تعبيرًا ذاتيًّا.

المطلب الثالث (الجانب التحليلي)

سيميائيّة (بكاء) السيّدة الزهراء (عليها السلام) عند احتضار أبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله)

يُنقلُ عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام)، قال: " البكاؤون خمسة: (آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين عليهم السلام.... الى أن يقول: وأما فاطمة فبكتْ على رسول الله صلى الله عليه واله حتى تأذّى بها أهل المدينة، فقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج الى مقابر الشهداء فتبكي حتّى تقضي حاجتها ثمّ تنصرف....) [٣٠].

وفي هذه الرواية تقريرٌ لحالة (البكاء) التي مارستها السيّدة للتّعبير عن أحزانها، ومصائبها، ومظلوميتها، لكن اللافت في هذه الرواية ورود صيغة المبالغة (البكائين) للتعبير عن فعل البكاء، ما يعني أنّها تصلحُ أن تشكّل نسقًا تواصليًّا واضحًا وما يميزه أنه لا يعدّ نسقا لفظيًّا؛ لكنّه يحتوي في مضمونه شكلًا من أشكال التواصل المعرفيّ، والعاطفي معًا؛ لذا سنبحث في الأسباب والدواعي التي جعلتها تتّخذ من فعل البكاء وسيلةً تواصليّة، وإبلاغيّة؛ فلعلّ في (البكاء) خطابًا تواصليًّا دالًّا على رموز، ودلالات تخفي وراءها ما نسعى لتمييزه في خطابها (عليها السلام) لا سيّما وأنّ فعل البكاء لا بدّ أن يرافقه فعلٌ، أو مجموعة أفعال لغويّة لفظيّة ترافق قناة التواصل غير اللفظية تلك فتعزّز من سيميائيتها، ودلالتها الإشاريّة إلى مضامين، ودلالات قد تكون مخفيّةً، أو مهمّشة، أو معتم عليها.

يعدّ (البكاء) من أبرز صور الخطاب التواصليّ (غير اللفظي) في خطاب السيّدة الزهراء(عليها السلام) ، وعلى الرغم من كونه سلوكًا، وممارسةً إنسانيّة طبيعيّة؛ إلّا أنّه يعبّر عن كمٍّ هائلٍ من القيم والدّلالات، لا سيّما إذا ترافق هذا السّلوك الإنسانيّ مع دوالّ أخرى لفظيّة، تعزّز من قيمة الخطاب اللغويّ، وتغني الرسالة بتدعيمها بالحركات لضمان استمراريّة التواصل بين المرسل، والمتلقّي[٣١].

وتتجلّى قيمة البكاء بوصفه تواصلًا سيميائيًّا، في حادثة احتضار رسول الله(صلى الله عليه وآله) ، فـ "عن عائشة قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأنّ مشيتها مشية أبيها، وما يخطئ أباها حتّى جلست إلى جنبه فسارّها **فبكت**، ثمّ سارّها **فضحكت**؛ فقلت: ما رأيت كاليوم ضحكًا أقرب من حزن ؛ فأخبريني ما قال لك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أحد.."[٣٢]. ومن خلال الرواية نلاحظ ممارسة السيّدة الزهراء (عليها السلام) لفعلينِ اجتماعيين دالّينِ في الوقت نفسه، وفي السياق التواصلي نفسه، وهما فِعْلا (البكاء)، و(الضحك) معًا!؛ فالخطاب التواصليّ الذي حصل بين السيّدة، وأبيها الرسول (صلوات الله عليهما وآلهما) خطاب مليء بالرّموز، والدلالات التي تثير

حفيظة بعض المتلقّين وتثير تساؤلاتهم؛ ما يعني أنّه كان خطابًا مشفّرًا استلزم نوعًا من الغموض، والسرّيّة، وممّا يقوي دلالة الإسرار الذي أسرّه رسول الله لابنته (عليهما السلام)، ذلك الدالّ اللغويّ الذي عبرت به السيّدة الزهراء (عليها السلام) بقولها إجابة عن استفهام عائشة في ما بعد: " ما كنتُ لأفشي سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أحد ".

إذن نحن في قبالة تواصل اعتمد في أسلوبه على تبادل معلومات، ورسائل لغويّة، وغير لغويّة، وسواء كان هذا التبادل قصديًّا، أو غير قصديّ، فهو تفاعل سلوكيّ بين فردين اجتماعيين[٣٣]، متمثّلين في شخصَي الرسول وابنته(عليهما أفضل الصلاة والسلام)، وهما يتبادلان المعارف الذهنيّة، والمشاعر الوجدانيّة بطريقة لفظية، وغير لفظيّة[٣٤]، في سياق ارتكز على فعل الإخبار الذي مارسه رسول الله لابنته حول شؤون، وقضايا ما زالت غامضة حتّى الآن.

ومن هنا يمكننا تحديد عناصر العمليّة التواصليّة بما يأتي:

١. المرسل، متمثّلًا بشخص الرسول (صلى الله عليه وآله).

٢. المرسل إليه، متمثّلًا بشخص السيّدة الزهراء (عليها السلام).

٣. الرسالة متمثّلة بمضمون الخبر الذي أخبره الرسول (صلى الله عليه وآله) لابنته عليها السلام.

٤. القناة (لغويّة، وغير لغويّة) متمثلة بـ(الهمس، والبكاء ثمّ الضّحك).

٥. شيفرة (غامضة) تحتاج إلى فكّ رموزِها.

٦. السّياق .

يبقى أن نلاحظ وجود متلقٍّ آخر كان حاضرًا في دائرة التواصل تلك، لكنّنا يمكن أن نصفه بالمتلقي السلبيّ . بحسب معطيات نظريّة التواصل . التي تفترض ازدياد عدد المتلقّين لرسالةٍ ما؛ فهُم يظلّون سلبيين في أثناء تلقّيهم للرسائل المشفرة ما داموا على جهلٍ بالرسالة المرسلة، وهو ما حصل فعلًا؛ إذ على الرغم من وجود عائشة في مقام التواصل ذاك؛ إلّا أنّها لم تكُنْ على معرفة بما حملته شيفرة التّواصل التي تضمّنتها قناة الرسالة المتمثّلة بـ (بكاء الزهراء) ثمّ (ضحكها)؛ فعلى الرّغم من كون فِعْلَي (البُكاء)، و(الضّحك) من الممارسات الاجتماعيّة الطبيعيّة؛ إلا أنّه بالنتيجة تعبير عن مشاعر تتعلّق بحالةِ الحُزن أو الفرح، لكن لا بدّ من موضوعٍ يستدعي حالة البكاء، وكذلك بالنّسبة للضّحك.

أمّا في سياق زيارة السيّدة الزهراء لأبيها (عليهم أفضل الصلاة والسلام)؛ فمسألة البكاء هنا ارتبطتْ بموضوع عظيمٍ، ولعظمته استدعى من الرسول إخبارَه لابنته عن طريق (الإسرار)

والهمس؛ فما بالك إذا استتبع حالة البكاء، حالة مناقضة له وفي الوقت نفسه! ما يستدعي بدوره حالة من الرغبة بمعرفة ما يدور في محور تلك العمليّة التواصليّة، وهو ما فعلته عائشة حين شرعت بسؤال السيّدة الزّهراء عن سبب بكائها، وضحكها في ذلك المقام؛ فأجابتها السيّدة قائلة، وفي سياق الموقف نفسه: " ما كنت لأفشي سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله لأحد"!؛ ومن هنا أمكن تصوّر عائشة في مقام المتلقّي السلبيّ الذي وقع في طائلة غموض العمليّة التواصليّة تلك من دون أن يعرف مؤدّاها باستثناء تلقّيه لنوع قناة الاتّصال المتمثّلة بالبكاء والضحك.

ولكي تخرج عائشة من رغبتها في الكشف عن الرسالة الغامضة) . ولو بعد حين . كرّرت سؤالها للسيّدة الزهراء(عليها السلام) بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، عن سبب بكائها ذاك ثمّ ضحكها عند رسول الله وهو يسرّها القول في مرضه، حينما كان في الحياة، قائلة: "أخبريني" فأجابتها السيّدة الزهراء بقولها: (أمّا الآن فنعم)، سارّني أوّل مرّة؛ فقال: (إنّ) جبرئيل كان يعارضني القرآن في كلّ سنة مرّة، وأنّه عارضني في هذه السنة مرّتين، ولا أحسب ذلك إلّا عند حضور أجَلِي، قالت: فبكيت ثمّ سارّني؛ فقال: إنّكِ أسرعُ أهلي لحوقًا بي، وإنّك معي في درجتي فضحكت"[٣٥].

وهنا، وحسب صارتْ عائشة متلقيًا آخر، على الرّغم من حقيقة كونه متلقيًا غير مباشر، وبالنّتيجة أصبحتْ على اطّلاعٍ بمضمون الرّسالة التي صرحت عنها السيّدة فيما بعد؛ حفاظًا على وصيّة أبيها صلوات الله عليه وآله.

وما إسرارُ رسول الله (صلى الله عليه وآله) لابنته فاطمة الزهراء (عليها السلام)، فما كان ما أسرها به من الأخبار، والحقائق . في دلالته الإشاريّة . إلا رغبة منه في مشاركتها لرسالةٍ ما، واستئمانًا لما أراد الإخبار عنه؛ فهي (أمّ أبيها) كما كنّاها الرسول صلى الله عليه وآله[٣٦]، وما هذا النّوع من التّواصل . في ضوء جواب السيدة الزّهراء على استفهام عائشة . إلّا علامة على وجود نسقٍ لتزعُّمها إدارة الخطاب، وخصوصيّته.

ولو عدنا لفعل البكاء بوصفه نسقًا تواصليًّا يحمل من الدلالات ما يحمل، وفيه من الرسائل ما تحوج المتلقّي إلى تحليلها وتفسيرها، وقناة هذا الفعل التواصليّ عضو تواصليّ مؤثّر هو العين، لكنّه ليس فعلًا تواصليًّا معتمدًا على حركة العين تلميحًا وإشارة، أو أيّ تعبير عن دلالة من الدلالات التي يتضمّنها السلوك الإنسانيّ، وإنّما تضمن دور العين هنا على ما تنتجه هذه الحاسة من فعل معبّر عن حالة حزن ما، يستدعي نزول الدموع، وجريانها حتى تكون مرئيّة لدى المتلقّي الذي يشهد أحد أقوى إمارات الحزن التي يمارسها فعل البكاء، بوصفه لغةً عالميّة يتّفق على دلالتها العالم أجمع على اختلاف لغاته، وثقافاته، وهو من العلامات التي

تمتلك قصديّة موحّدة في أغلبها، مع اختلاف الموضوع الذي يستدعيه، وهذا الموضوع يعدّ شيئًا متعلّقًا بالذّات المنتجة له بوصفه سلوكًا اجتماعيًّا، وعن طريق البكاء يريد المرسل عن وعي أو عن غير وعي إيصال رسالة ما، لكن المتلقّي قد لا يعلم مضمون الرسالة الحقيقيّ، وموضوعها، ولا سيما في حالة البكاء التي حصلت عند السيدة الزهراء (عليها السلام) في ذلك المقام التواصليّ المخصوص، إذ اتّحدت مجموعة من الدوال اللفظيّة مع مجموعة من الدوالّ غير اللفظية . المتمثّلة بـ (البكاء) . لتشكّل خطابًا سيميائيًّا تواصليًّا لنسقٍ من أنساق زعامتها(عليها السلام)، فحين يقصر النبيّ (صلى الله عليه وآله) مسألة إخباره تلك بخبر رحيله إلى الرّفيق الأعلى، على ابنته السيّدة الزهراء دون غيرها، غير مكتفٍ بذكر الخبر؛ بل ويقدّمه بدليل مختصّ به بوصفه نبيًّا، و باعتبار مقام النبوة الذي يتبوّأه (صلى الله عليه وآله)، وهذا الدليل المختصّ به (صلوات الله عليه وآله) يتمثّل في ذكره لمسألة (معارضة) جبرئيل (عليه السلام) له في القرآن مرّتين دون كلّ سنوات نبوّته (صلى الله عليه وآله)؛ وهذا في عرف النبوّة، واعتقاداتها، أمر يشير سيميائيّا . هو الآخر . إلى أنها علامة على قرب أجله ودنوّه (صلى الله عليه وآله)؛ فكان بكاؤها (عليها السلام) لسماعها هذا الخبر؛ فهو حين سماعه مدعاة للحزن والبكاء آنيًّا، فضلًا عمّا يترتّب على هذا الخبر من أحداث ومواقف، علمتْها السيّدة من أبيها حول ما سيجري عليها، وعلى أمير المؤمنين (عليهما السلام) من بعدِه.

أمّا مسألة ضحكها (عليها السلام) في الوقت ذاته الذي بكت فيه؛ فهذه مسألة تعد بذاتها مؤشّرًا سيميائيًّا دالًّا يعزّز قيمة حالة البكاء، باعتبار علاقة النّقيض بين فِعْلي الضّحك والبكاء، وهذا النوع من التناقض يعزّز مضمون الدالّ الأوّل (البكاء) سيميائيّا في ذلك الخطاب، ويشير هو الآخر إلى نسق معّين من الأنساق التواصلية المؤثّرة؛ فليس من السّهل أن يجتمع البكاء، والضحك في ممارسة تواصليّة اجتماعيّة واحدة كهذه؛ لولا قوّة الرسالتين اللتين تلقتهما الزّهراء(عليها السلام) التي كان مؤدّى الأولى فيها (الفراق)، ومؤدّى الثانية فيها (اللحاق)، إلّا أنّ المضامين التي تضمّنتهما الرسالتان أكبر من أن تقرأ بهذين المعنيين؛ لأنّ الرّسالتين مظروفتين بأحداث عظيمة حدثتْ على إثرهما كثيرٌ، وكثيرٌ من المواقف التي جعلتِ السيّدة في حالة من البكاء المستمرّ حتّى عدّت من البكّائين الخمسة! بدليل الرواية التي أقرّت كونها من البكائين.

يبقى أن نشير إلى أنّ الرّواية قد جعلتِ السيّدة الزهراء (عليها السلام) في مصافّ البكّائين؛ ومع كون البكاء يعدّ حقًّا إنسانيًّا مشروعًا للتّعبير عن ألم الفقدِ، والفِراق، ولا سيّما إذا كان فقدًا لنبيّ الأمّة، وزعيمها السياسيّ، والدّينيّ، والاجتماعيّ، والنفسيّ، فضلًا عن تعلّق الزّهراء

بأبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ وعلى الرغم من اقتران مقام الحزن، ولقد نقلت لنا المنظومة التراثية الدينية . المتمثلة في القرآن وروايات الأئمة (عليهم السلام) . كثيرا من رموزنا الدينية الخالدة التي اقترن تاريخها بـ (البكاء) كما ينقله لنا صاحب (بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأمة الأطهار) العلامة المجلسي في رواية مولانا الإمام الصادق (عليه السلام): (البكاؤون خمسة: آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد(صلّى الله عليه وآله) وعلي بن الحسين (عليه السلام)، فأما ادم فبكى على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية، واما يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره.. واما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذى به أهل السجن ... واما فاطمة بنت محمد (صلّى الله عليه وآله) فبكت على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتى تأذى بها أهل المدينة ... واما علي بن الحسين (عليه السلام) فبكى على الحسين (عليه السلام) عشرين سنة او اربعين سنة وما وضع بين يديه طعام الا بكى...) [٣٧]، وبما أن الرواية تعلل سبب بكاء كل واحد منهم بصورة المبالغة في صيغة (البكائين) الواردة في الرواية؛ إذ أوضحت علة بكاء نبينا آدم (عليه السلام) على الجنة وفراقه عنها، حتى صار في خديه أثر يشبه الأخاديد التي يجري بها الماء فترات طويلة . كما تنقله الرواية . ، فعمل ذلك الدمع فيها عمقا وسعة لشدة ما تركه من أثر فيها..، وعلة بكاء النبي يعقوب (عليه السلام)، كانت حزنا على فراق ولده يوسف (عليه السلام)، وعلة بكاء يوسف (عليه السلام) كانت ألما على حزن أبيه لفراقه، وكان سبب عدّ الزهراء (عليها السلام) من البكائين بحسب الرواية، حزنها على فقد أبيها (صلوات الله عليه وآله) ، وأما زين العابدين علي بن الحسين(عليه السلام)، فقد طال بكاؤه وحزنه قرابة الأربعين سنة وهو يبكي كلما وضع الماء أو الطعام بين يديه، فبكاؤه كان بكاؤ المتفجع الذي فجع ليومه في كل يوم، حزنا على الظلم الذي لحق بأبيه الذي قتل عطشا دونما يسقى شربة ماء (سلام الله عليه)، وكذلك ينقل عن الرسول الله صلى الله عليه وآله بكاؤه على فقد ولدَه القاسم (عليه السلام).

ولو أمعنا التفكّر في علّة بكاء كلّ واحدٍ منهم في ضوء ما نقلتْه لنا المنظومة التراثيّة عنهم (عليهم السلام)، لوجدناها تشير في ما نقلته إلى مضامين إشارية عالية، لا تقتصر أهميّتها على الجانب العاطفيّ في كون البكاء ممارسة شعورية جبل عليها الإنسان بفطرته للتعبير عن العاطفة في حزن أو فرح ما.. وحسب؛ بل تتجاوز ذلك المضمون إلى مضامين جوهريّة أخرى لها أبعاد روحية وأخلاقية تعبر عن مدى صلتهم وعلاقتهم بالله (عزّ وجلّ)؛ فآدم (عليه السلام) لم يبك حزنا على فراق الجنة المادي، ولو كان حزنه ماديا لانتهى بوجود النعيم المادي الذي ضمنه

الله له في أرضه؛ فالله حين أنزل آدم (عليه السلام) من جنته ، لم يتركه بلا عناية في أرض الدنيا، بل إنّ آدم (عليه السلام) جعل من البكاء وسيلةً للنّدم والتّوبة حتّى أثر فيه البكاء وكان سببا للطف الله به، ((فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه..)) البقرة:٨، ومن هنا عدّ من البكّائين..، وكذلك حال نبي الله يعقوب ونبي الله يوسف (عليهما السلام)، كلاهما قد مارسا فعل البكاء لمضامين عالية تتجاوز مسألة الفراق المادي الذي تعرضا له في قصة فقد يوسف وتآمر إخوته عليه..، فلا ينبغي نسيان كون آدم ويعقوب ويوسف (عليهم السلام) أنبياء الله الذي قال فيهم عز وجل: أ((وْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَ مِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَاءِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَ بُكِيًّا))، فالبكاء صفة الأنبياء، إلا أن هؤلاء الذين ورد ذكرهم في الرواية عدّو من البكائين لظروف مخصوصة أحاطت بمسيرتهم إلى الله (عز وجل)، حتى كان لـ (البكاء) تاريخ اقترن بهم في تلك المسيرة.

ولم يكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمعزل عن ممارسة (البكاء) عن أنبياء الله الذين سبقوه، فقد عاش حياة الحزن في مسيرته الرسالية وتخلل حياته الشريفة الكثير من المنعطفات التي تسببت له بالحزن الشديد كما في عام (الحزن) الذي سماه الرسول (صلوات الله عليه)؛ لما لاقى فيه من ألم فقد وفاة (أبي طال) (رضي الله عنه)، وفقد زوجته خديجة (رضي الله عنها) بعد ثلاثة أيام من رحيل عمه [٣٨]، ويذكر أنه بكى (صلوات الله عليه) على فقد ولده القاسم (عليه السلام)؛ لأنّه أوّل مولود له توفي، ولم يكملْ رضاعتَه[٣٩]، وبكى لفقد عمه الحمزة بن عبد المطلب (رضوان الله عليه)، وينقل أنه بكى على عمه الحمزة أسد الله وأسد رسوله، ولما رأى حمزة قتيلا بكى فلما رأى ما مثل به شهق [٤٠].

أما الإمام علي بن الحسين فكذلك كان (البكاء)، مرافقا له، لذلك نجد أن من لوازم ذكره (عليه السلام) نذكر مصيبة الإمام الحسين وما جرى عليه، فأينما ذكر اسم علي ابن الحسين هاجت ذكرى استشهاد أبيه، فكيف به وقد شاهد كل ما دار في معركة الطف بأم عينيه، وشاهد حال النساء والأطفال وما تعرضوا له من قتل وسبي وتعذيب، وينقل المحدثون أن الإمام زين العابدين (عليه السلام) بكى على أبيه الحسين (عليه السلام) عشرين سنة ، وما وضع بين يديه طعام إلاَّ بكى ، حتى قال له مولى له : يا ابن رسول الله ، أما آن لحزنك أن ينقضي ؟ فقال له : ويحك ؟ إن يعقوب النبي (عليه السلام) كان له اثنا عشر ابناً ، فغيَّب الله عنه واحداً منهم فابيضَّت عيناه من كثرة بكائه عليه ، وشاب رأسه من الحزن ، واحدودب ظهره من الغمّ ، وكان ابنه حياً في الدنيا ، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي

مقتولين حولي ، فكيف ينقضي حزني ؟! [41] ، وقيل : إنه بكى حتى خيف على عينيه وكان (عليه السلام) إذا أخذ إناء يشرب ماء بكى حتى يملأها دمعاً ، فقيل له في ذلك فقال : وكيف لا أبكي وقد مُنع أبي من الماء الذي كان مطلقاً للسباع والوحوش ؟ وقيل له : إنك لتبكي دهرك ، فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا ، فقال: نفسي قتلتها وعليها أبكي [42]، وكأن البكاء ميراث غدا ميراثا للأنبياء والأوصياء، فتراهم مرة يبكون من خشية الله، ومرة يتقلبون بين يديه متضرعين والهين، ومرة متوجعين من أذى عباد الله المناوئين والمعاندين و الظالمين، كما هو حال السيدة الزهراء (عليها السلام)، التي رافقت أباها في مسيرته الرسالية، وعاشت معه ما لقي من أذى قريش، ومن بعده لاقت ما لاقت من الظلم والآلام، فرحلة الألم بدأت منذ تلك اللحظة التي أخبرها بقرب رحيله، فبكت، ثم ضحكت بعد أن علمت أنها أول من يلحق به (صلوات الله عليه وآله).

والذي أريد قوله أن البكائين الخمسة ومنهم الزهراء وأبيها (صلوات الله عليهم)، لم يمارسوا فعل البكاء في مضمونه العاطفي الطبيعي الذي يعيشه الناس العاديون، بل هو بكاء حمل بين طياته غايات إنسانية عظمى، ، فرسول الله (صلى الله عليه وآله) بكى في حياته كثيرا، منذ أن ذاق طعم اليتم وحتى رحيله إلى الرفيق الأعلى؛ ولكن بكاءه كان لله قبل أن يكون لنفسه، فهو كان وما يزال يمثّل تلك المركزيّةً الحاضرة في سلوكيّاته، وأقواله؛ فالفضاء الذي انفتح من مجمل ممارساته وخطابه يتجلّى ببعده الإنسانيّ المستشعر لقيمة الموجودات بشريّةً، أو غيرها، وهو ما دوّنته المنظومة التراثيّة بحقولها المختلفة حين تقف عند مرتكزات تلك الشخصية وعظمتها[43]، وفي البكاء التي مارسه رسول الله بعد وفاة ابنه القاسم . بحسب ما نقلته الرواية . فإنه يدخل في ضمن ما يسمّى بالتّحديدات التوتّرية أو (العوارض)، أي ما يعترض العاطفة من توتّرات عاطفيّة بدرجاتها المختلفة[44]؛ فهي عوارض بالنّتيجة، وهي واردة الحصول لكل إنسان على وجه الأرض، والأنبياء والمرسلون هم بشر ولا بد أن تعترضهم تلك العوارض المختلفة ؛ أن اختلفت في شدتها لدى البكائين الخمسة ، ومع ذلك كان بكاؤه (صلوات الله عليه وآله) بكاءً ملؤه الصّبر، والتأسّي، وإن كان البكاء ملازما لهؤلاء البكائين الخمسة فلا بد من القول أن فعل البكاء، لم يقعدْهم عن ممارسة مهامّهم الإنسانيّة الأخرى، ولم تنسهم مهامهم الرسالية التي من أجلها بعثوا، والمدونّة التاريخية نفسها تنقل لنا عن جابر الأنصاريّ (رضي الله عنه)، قال: "قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مرضه الّذي قُبِضَ فيه لفاطمة (عليها السلام): بأبي وأُميّ أنت أرسلي إلى بعلك فادعيه لي فقالت فاطمة للحسين (عليهما السلام): انطلق الى أبيك فقل: يدعوك جدّي، قال: فانطلق اليه

الحسين (عليه السلام) فدعاه فأقبل أمير المؤمنين (عليه السلام) حتّى دخل على رسول الله، وفاطمة (عليهما الصلاة والسلام) عنده وهي تقول: واكرباه لكربك يا أبتاه، فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا كرب على أبيك بعد اليوم يا فاطمة، إنّ النبيّ لا يشقّ عليه الجيب، ولا يخمش عليه الوجه، ولا يدعى عليه بالويل، ولكن قولي كما قال أبوك على إبراهيم: تدمعِ العينان وقد وجع القلب، ولا نقول ما يسخط الربّ و إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون"[٤٥].

أمّا فاطمة (عليها السلام) فحين بكتْ على فقد أبيها (صلوات الله عليه وآله)، حتى عدّت من البكّائين الخمسة؛ فلأن بكاءها (عليها السلام) كان بسبب استشعارها لجرحٍ كبيرٍ ألمّ بالدّين، والمذهب على الصعيد السياسيّ، وبالنّفس، والقلب على الصعيد الشّخصيّ؛ لِما واجهت به من ألوان الظّلم، والغصب، والقهر، والتّعذيب الجسديّ؛ لذلك لم يكن بكاؤها اعتباطيًّا، ولا مجرّدًا من القيمة التي تجعله سمةً قارة في شخصيّتها (عليها السلام)؛ فلا آدم ولا يعقوب ولا يوسف ولا مولانا زين العابدين (صلوات الله عليهم أجمعين)، على الرغم من كثرة بكائهم؛ لم تقعدْهم كثرة البكاء، ولا مشاعر الحزن الكبيرة عن ممارسة أدوارهم الرساليّة في الحياة، وإنّما وظّفوا البكاء بشكلٍ جعل منه سمةً دالّةً على حقائق تأريخيّة بقيتْ عالقة في ذاكرة التأريخ، تستمدّ منها الأمم والأجيال مضامين، وقيمًا، وعبرًا عالية المضامين؛ لذا كثرتِ الدراسات، والبحوث، والمناقشات في بكاء السيّدة الزهراء، وكيفيّة تسلّل أصابع التعمية، والتّشويه إلى قيمة فعل (البكاء) الذي عرف عن السيّدة الزهراء(عليها السلام) بعد مصيبة الفقد التي حلّتْ بها بعد رحيل الرسول (صلوات الله عليه وآله) إلى الرفيق الأعلى، حتّى أنّ أساليب التدليس تلك تجرأت بأن تنقل عن تأذّي أهل المدينة ببكائها، حتّى قالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، وأنّها اضطُرّتْ إلى الخروج الى مقابر الشهداء لتمارس فعل البكاء فتبكي حتّى تقضي حاجتها ثمّ تنصرف....[٤٦]؛ فنحن إذ نفتّش عن قيمة هذا الفعل التواصليّ في خطابها(عليها السلام)، ننظر إليه بوصفه رسالةً مشفّرةً تحمل بين طيّاتها ما تحمل من المؤشّرات والرموز، كردّة فعل احتجاجيّة على مجموعة من الأفعال المجحفة التي لاقتها السيّدة فور وفاة أبيها، وإشارة إلى الظّروف التي عاشتها السيّدة (عليها السلام)، وبمثل هذا الفعل التواصليّ القارّ، يمكن للفَطِن المفكّر أن يمسك بالشوارد من هذه الرموز، والدّلالات التي تعيننا على تلقّفها أدوات التّحليل السيميائيّ.

إنّ السيّدة الزهراء(عليها السلام) كانتْ، وما زالتْ سيّدة الموقف في مقام الحُزن الكبير الذي أصابها على فقد أبيها صلوات الله عليه وآله؛ ولم يكن حُزنها، وبكاؤها عليه بكاءً كما أرادت أصابع التحريف أن تطبعه في ذاكرة التاريخ؛ بل

كانت الزهراء (عليها السلام) متوازنةً إبّان وفاة أبيها[٤٧]، على الرّغم من فداحة المصيبة على قلبها، وعلى الرغم من كونها بشرًا، وأمر فراق رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يكن بالأمر الهيِّن عليها، فضلًا عمّا شعرتْ به من فداحة المصيبة وثقلها التي أَلَمَّتْ بالمسلمين بوفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله).. فلقد كان حزنُها عليه أعظم الحزن، وبكاؤها عليه أعظم البكاء، ولكن ليس بالصّورة التي بالغت بها بعض التصوّرات السطحيّة؛ فكانت الزهراء(عليها السلام) تخرج إلى قبره الشَّريف مصطحبةً ولديها الحسنين (عليهما السلام) لتبكي أباها، وكلّ الشّهداء الذين سقطوا معه؛ لا لمجرّد الرّغبة في الحزن والبكاء؛ ولا من أجل ممارسة طقوس اجتماعيّة مجرّدة؛ بل ليكون فعل البكاء هذا رسالة تواصلية إبلاغيّة، تذكّر بها المسلمين برسول الله (صلى الله عليه وآله)، حتّى لا ينسوه في غمرة الأحداث الكبيرة التي عاشوها، تحت وطأة التّسيس، والخداع التي سادت مدّة وفاة رسول الله، لدرجة تحجّج بعض القوم بدعوى إزعاج بكاء السيّدة لأهل المدينة[٤٨]، ومحاولتهم كبتْ صوت الحقيقة المؤلمة، والشرخ الكبير الذي تركه رحيل الرسول محمّد (صلى الله عليه وآله)، وما تبعه من أحداث سياسيّة صادمة.

فلم تكنِ السيّدة(عليها السلام) تستغرق وقتها في اللّيل والنّهار في البكاء، ولا أنّها كانت كلّ هذه المدّة "يغشى عليها ساعةً بعد ساعة . كما صوّرته بعض الممارسات المضلّلة، والخدع السياسيّة المدروسة، التي أراد بعض المخالفين إلصاقها بالسيّدة الزّهراء كذريعة لإبعادها، وإخماد صوتها الرساليّ المذكّر بأبيها[٤٩]؛ فلم تكن السيّدة لتخالف وصيّة أبيها صلوات الله عليه حين أوصاها قبل مماته بقوله: " إذا أنا متّ، فلا تخمشي عليّ وجهًا، ولا ترخي عليّ شعرًا، ولا تنادي بالويل، ولا تقيمي عليّ نائحة". ثمّ قال: "هذا المعروف الّذي قال الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ((وَلَا يَعْصِينكَ فِي مَعْرُوفٍ))[٥٠]؛ ومن هنا لا يمكن أن يكون بكاؤها على أبيها (عليهما السلام) هو الذي أزعج المعترضين، وأثار حفيظتهم؛ وإنّما الذي أحفظهم، وأزعجهم ما يثيرُه وجود الزهراء إلى جانب قبر أبيها على حالة من الحزن، والكآبة، والانكسار الذي يذكر الناس بالمأساة التي تعرضت لها (عليها السلام) فور وفاة أبيها ؛ إذ إن ذلك يمثّل حالة إثارة مستمرّة للنّاس الطيبين، والمؤمنين، والمخلصين، وهو إدانة لكلّ ذلك الخطّ الذي لم يتوقّف عن فعل أيّ شيء في سبيل ما يريده؛ فلم يكن البكاء على شخص الرّسول، بقدر ما كان تجسيدًا للمأساة التي حاقتْ بالإسلام، ورموزِه بمجّرد وفاته، وفقده صلوات الله عليه[٥١]، ومن هنا مثّل فعل (البكاء) أثرًا سيميائيًّا واسعَ المدى، يمكن أن يُقرأ من جوانب عدّة، اجتماعيًّا، ونفسيًّا، وسياسيًّا، وعلى الرغم من كونه ليس لغويًّا، إلّا أنّه منحَ الخطابَ

التواصليَّ قيمةً تواصليّة لا تقلّ أهميّةً عمّا تعطيه الدوالّ اللفظيّة من قيمةٍ لسانيّة لغويّة اجتماعيّة.

الخاتمة

. تعدّ مقاربة بكاء السيّدة الزهراء (عليها السلام) . في ضوء المنهج السيميائيّ . حين أسرّها الرسول (صلى الله عليه وآله)، أنموذجًا واحدًا مصغّرًا من نماذج الممارسات الاجتماعيّة الصادرة عنها (عليها السلام)، وهي مقاربة كاشفة عن عمق هذه الممارسة الإنسانيّة الطبيعيّة، وفاعليّتها المؤثّرة في المتلقّي، وتصوّراته الذهنيّة. ـ يمكن في ضوء هذه القراءة السيميائيّة الكشفُ عن ممارسات سلوكيّة أخرى متعدّدة في حياة السيّدة الزهراء (عليها السلام) المتضمّنة في خطاباتها المختلفة، وبوساطة المنهج السيميائيّ يمكن أن نكتشفَ عن رسائل أخرى مشفّرة يمكن أن تجيب عن تساؤلات كثيرة حول مظلوميّة السيّدة الزهراء مدّة حياتها (عليها السلام)، وحتّى مماتها.

. أفرز البحث عن أهميّة التواصل غير اللفظيّ في حياة السيّدة الزهراء (عليها السلام)، فضلًا عن أهميّته بالنّسبة للباحثين في سيمياء التواصل بكلّ أنواعه.

. أفرز البحث سيميائيًّا، تفكيكًا لمجموعة من الشيفرات التي حملتْها رسائل الزّهراء التواصليّة بينها، وبين أبيها (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وهو ما يعضّد قيمة البحث سيميائيًّا.

الهوامش:

١١ . السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد: ٩.

٢ . ينظر: دليل النظرية النقدية، بسام قطوس: ١٦١.

٣ . Montaigne, 1984, P2(2)Peirce, Textes Anticartesiens, presentation et traduction dejoseph chenu, ED Aubier

٤ . مقدمة الترجمة العربية لكتاب جون ديوي، المنطق نظرية البحث، زكي نجيب محمود: ٣١ دار المعارف القاهرة ١٩٦٠.

٥ . بيرس هو أول من صاغ مصطلح"البراجماتية"الذي استعمله الناقد المغربي أحمد المتوكل.

٦ . السيرورة السيميائية والمقولات (قراءة في فلسفة بورس السيميائية)، سعيد بنكراد: مجلة مدارات فلسفية.

٧ . Peirce.C.S.How.to make our ideas– clear. (in the philosophy of Peirce select.ed writingsed by Justus Harcourt Brace and company.N.Y1940p30

٨ . تصنيف العلامات، تشارلز سوندرس بورس: (مرجع سابق): ١٣٩.

٩ . أسس السيميائية ،دانيال تشاندلر: ٧٣.

١٠ . ينظر : الشكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، محمد الماكري،: ٤٥.

١١ . المسارات العامة لتحديد مفهوم العلامة ، بلقاسم ازميت: ٤٤.

١٢ . المسارات العامة لتحديد مفهوم العلامة ، بلقاسم ازميت: ٧٠.

١٣ . السيموطيقا والعنونة، جميل حمداوي: ٨٩.

١٤ .دروس في السيميائيات، د.حنون مبارك: ٧٣.

١٥ . ينظر: الاتجاهات السيموطيقية ، التيارات والمدارس السيموطيقية في الثقافة الغربية، د.جميل حمداوي: ١، ٤٦، المجلد ١.

١٦ . تصنيف العلامات ، تشارلز سوندرس بيرس: ١٣٩،(مرجع سابق).

١٧ . R0man jakobson, "language in Relation ti other communication systems " in : jakobson , selected writing . vol. word and language p. 697.

١٨ . ينظر: أسس السيميائية، دانيال تشارلز: ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، بتصرف.

١٩ . ينظر: التواصل اللساني والسيميائي والتربوي، د. جميل حمداوي: ٧.

٢٠ . اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج، سمير شريف أستستة: مج ١، ص ١٥، وينظر: اللغة وعلاقتها بالتواصل اللساني، فلاني محمد القاسم: ٤٥، مج: ١٧.

٢١ . ينظر: Comprendre la linguistique , marabout , France , 1975. P44.

٢٢ . التواصل غير المنطوق في ديوان الخنساء دراسة في السيميائية العربية، عفاف بنت عمر بن عبد الله العتيق: ١٥١.

٢٣ . ينظر: العلامات غير اللغوية وتداولية النص الأدبي، دلال وشن: http://www.alkalimah.net/Articles/Read/20087

٢٤ . علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، محمود السعران:٦٣.

٢٥ . محاضرات في علم اللغة الحديث ، أحمد مختار عمر: ١١٩.

٢٦ . ينظر: العبارة والإشارة دراسة في نظرية الاتصال، محمد العبد: ١٠٠.

٢٧ . السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، محمد إقبال عروي، المجلد ٢٤: ع:٣، ص: ١٩٠.

٢٨ . تراسل الحواس بين القدامى والمحدثين، عبد الرحمن محمّد الوصيفي: ٤٧.

٢٩ . تيارات في السيمياء ، عادل فاخوري: ٥ .

٣٠ . الأمالي، الصدوق: ٢٠٤.

٣١ . ينظر: التواصل اللساني والسيميائي والتربوي، د. جميل حمداوي: ٢٨.

٣٢ . مناقب الإمام أمير المؤمنين، محمد بن سليمان الكوفي: ٢/ ٢٠٨، بحار الأنوار ، العلامة المجلسي: ١٢/ ٢٦٤.

٣٣ . ينظر: سيكولوجية الاتصال، طلعت منصور: ١٠١.

٣٤ . ينظر: التواصل اللساني والسيميائي والتربوي، د. جميل حمداوي: ٨.

٣٥ . مناقب الإمام أمير المؤمنين، محمد بن سليمان الكوفي: ٢/ ٢٠٨، بحار الأنوار ، العلامة المجلسي: ١٢/ ٢٦٤.

٣٦ . ينظر: مقاتل الطالبيين، ٥٧، وكشف الغمة: ٢/ ٨٨.

٣٧ . بحار الأنوار: ٤٦/ ١٠٩.

٣٨ . ينظر: بحار الأنوار: ٢٥/١٩.

٣٩٣٩ ينظر: سيرة ابن هشام: ١٩٠/١، وينظر: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، شهاب الدين القسطلاني: ١/ ٤٧٩.

٤٠ . ينظر: الكامل في التاريخ: ١٧٠/٢، والصحيح من سيرة النبي الأعظم: ٤/ ٣٠٧ . ٣١٠.

٤١ . بحار الأنوار: ٦٣/ ٤٦.

٤٢ . مناقب آل أبي طالب ، ابن شهر آشوب : ٣٠٣/٣ ، عنه بحار الأنوار : ١٠٨/٤٦ ح ١.

٤٣ . ينظر: العاطفة موضوعا سيميائيا قراءة في خطابات النبي الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله)، هادي شندوخ حميد: ١٠٦، مج: ٨، ع: ٣٠.

٤٤ . ينظر: سيمياء العواطف في قصيدة اراك عصي الدمع لابي فراس الحمداني ، عمي ليندة : ٩١، رسالة ماجستير، الجزائر ،٢٠٠٨، وينظر: العاطفة موضوعا سيميائيا قراءة في خطابات النبي الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله)، هادي شندوخ حميد: ١١٥.

٤٥ . مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي: ٢٢/٣.

٤٦ . بحار الأنوار، المجلسي: ٤٣/ ١٥٥.

٤٧ . ينظر: حول بكاء الزهراء، السيد محمد حسين فضل الله (قدس سره)، https://www.bayynat.org.lb/article.

٤٨ . ينظر: الخصال: ١/ ٢٧٢، وأمالي الصدوق: ١٢١، والعوالم: ١١/ ٤٤٩، ومناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣٢٢، وكشف الغمة: ٢/ ١٢٤ . ٣٣٦.

٤٩ . ينظر: بحار الأنوار، ج:٤٣، ص:١٨١. وعوالم الزهراء، ص:٤٥١.

٥٠ . الكافي، الكليني: ٥٢٧/٥.

٥١ . ينظر: كتاب مأساة الزهراء عليها السلام، السيد جعفر مرتضى العامليّ: ١/ ٣٣٥.

المصادر والمراجع

. الاتجاهات السيموطيقية، التيارات والمدارس السيموطيقية في الثقافة الغربية، د. جميل حمداوي، المجلد ١، مكتبة نور.

. أسس السيميائية، دانيال تشارلز، ترجمة: د. طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت ٢٠٠٨.

. تراسل الحواس بين القدامى والمحدثين، مكتبة الآداب، ط١ ٢٠٠٣ ،١٤٢٤ القاهرة. مصر.

. أمالي الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(٣٨١ هـ)، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت . لبنان.

. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الاطهار، العلامة محمد باقر بن محمد تقي المجلسي، دار التعارف للمطبوعات، ٢٠٠٨.

. تصنيف العلامات، تشارلز سوندرس بورس، ترجمة فريال جبوري غزول، (مقالات ودراسات)، دار إلياس المصرية القاهرة ١٩٨٦.

. التواصل اللساني والسيميائي والتربوي، د. جميل حمداوي، دار الألوكة، ط١.

. التواصل غير المنطوق في ديوان الخنساء دراسة في السيميائية العربية، عفاف بنت عمر بن عبد الله العتيق، مجلة الدراسات اللغوية، مج ١٦، ع١، محرم/ربيع الأول ١٤٣٥هـ، نوفمبر/ يناير ٢٠١٤م.

. تيارات في السيمياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.

. حول بكاء الزهراء، السيد محمد حسين فضل الله (رحمه الله):https://www.bayynat.org.lb/article .

. الخصال، ابن بابويه القمي، ومحمد بن علي، غفاري، علي أكبري، مؤسسة النشر الإسلامية، ١٩٩٥.

. دليل النظرية النقدية المعاصرة ، مناهج وتيارات، بسام قطوس، دار فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠١٦.

. دروس في السيميائيات، د.حنون مبارك، دار توبقال للنشر، ١٩٨٧.

. السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد، دار الحوار، ٢٠١٩.

. السيرورة السيميائية والمقولات (قراءة في فلسفة بورس السيميائية)، سعيد بنكراد، مجلة مدارات فلسفية.

. السيميائية، دانيال تشاندلر، ترجمة د. طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، ط ١، ٢٠٠٨.

. السيموطيقا والعنونة، جميل حمداوي، عالم الفكر، الكويت، ١٩٩٧.

. السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، محمد إقبال عروي، مجلة عالم الفكر.

. سيمياء العواطف في قصيدة اراك عصي الدمع لابي فراس الحمداني، عمي ليندة: ٩١، رسالة ماجستير، الجزائر ،٢٠٠٨.

. سيكولوجية الاتصال، طلعت منصور، عالم الفكر، الكويت، ١٨٩٠م.

. سيرة ابن هشام، ط مصر، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده، ٢٠١٥م.

. الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي، محمد الماكري، المركز الثقافي العربي، ط١، الرباط ١٩٩١.

. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

. العلامات غير اللغوية وتداولية النص الأدبي، دلال وشن:
http://www.alkalimah.net/Articles/Read/20087

. . العبارة والإشارة دراسة في نظرية الاتصال، محمد العبد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧.

. العاطفة موضوعا سيميائيا قراءة في خطابات النبي الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله)، هادي شندوخ حميد، مجلة العميد.
. عوالم العلوم والمعارف والأحوال من الآيات والأخبار والأقوال، سيدة النساء فاطمة الزهراء ومستدركاتها، الشيخ عبد الله البحراني، ج١١، تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي (عج).
. كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي، تحقيق: علي فاضلي، المجمع العالمي لأهل البيت.
. اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج، سمير شريف أستستة، الأردن عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٥.
. اللغة وعلاقتها بالتواصل اللساني، فلاني محمد القاسم ، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، ٢٠٢١.
. مأساة الزهراء عليها السلام شبهات وردود، السيد جعفر مرتضى العاملي، دار السيرة، بيروت . لبنان .
. محاضرات في علم اللغة الحديث، أحمد مختار عمر، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، ١٩٩٥.
. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، بيروت دار احياء التراث العربي، ١٩٧٣.
. المسارات العامة لتحديد مفهوم العلامة، بلقاسم ازميت، مجلة فكر ونقد، دار النشر المغربية، المغرب٢٠٠٤.
. مقاتل الطالبيين، أبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت . لبنان.
. المنطق نظرية البحث، جون ديوي، ترجمة: زكي نجيب محمود، دار المعارف القاهرة ١٩٦٠.
. مناقب الإمام أمير المؤمنين، محمد بن سليمان الكوفي القاضي، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية.
. ومناقب آل أبي طالب، أبو جعفر بن علي بن شهر آشوب المازندراني، دار الأضواء.
. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، شهاب الدين القسطلاني، مصر، المكتبة التوفيقية.

المصادر باللغة الانكليزية

-**Peirce**.C.S.How.to make our ideas clear. (In the philosophy of Peirce. select.ed writingsed by Justus Harcourt Brace and company.N.Y1940p30.2.

-**Montaigne**, 1984, P2(2)Peirce, Textes Anticartesiens, presentation et traduction dejoseph chenu, ED Aubier

-**peirce**.c.s.HOW. to make our ideas clear. (in the philosophy of Peirce. select. ed writingsed by Justus HARCOURT Brace and company. N.Y 1940 P 30 .

R0man jakobson, "language in Relation ti other communication systems " in : jakobson , selected writing . vol. word and language p. 697 .

ت Comprendre la linguistique , marabout , France , 1975. P44.